نظرة الثقافة العربية إلى الديانة الهندية

شمس الدين الكيلاني *

ترك لنا مؤلفونا رزمة من المقالات والمقتطفات عن الديانة الهندية في ثنايا مؤلفاتهم الجغرافية والتاريخية والأدبية, وفي مدونات رحلاتهم, بعضها مصدره السماع, وبعضها الآخر حصيلة رحلاتهم وتجاربهم في ربوع الهند, وانفرد البيروني في تأليفه, ليس لأنه جمع بين التجربة والمعايشة المباشرة والسماع؛ بل لأنه قرأ المصنفات الدينية الهندية الأساسية من مصادرها الأصلية باللغة السنسكريتية, ولا سيما كتاب «بهاغوت غيتا» أو «بهاغها فاديتا», لذا فإننا إذا استثنينا (تحقيق) البيروني, فإن الكتابات الأخرى -بما فيها كتابات المسعودي, وابن طاهر المقدسي, وابن النديم, والشهرستاني- اقتصرت على إبراز أفكار وانطباعات عامة عن الديانة البراهمية, وشذرات غامضة عن البوذية, التي كانت عند دخول العرب إلى الهند واحتكاكهم بأهلها في حاله انحسار، بعد أن امتصتها البراهمية في ثنايا عقائدها المنفتحة على طرائق عدة من التعبد, والطقوس والعبادات, واقتصرت معالمها على بعض المعابد في بلخ, وباميان, وترمذ, وهي في أفغانستان اليوم.

وعلى الرغم مما يقال عن عدم اتساق معرفتهم بالعقائد البراهمية؛ فإنهم استطاعوا الدخول إلى التربة العامة لهذه الديانة, وإلى مناخاتها العقائدية وطقوسها الكبرى: أهمية براهما ومركزيته في هذه الديانة, وما تتضمنه من جانب «توحيدي» رغم مظاهر التعدد, والـ«شرك», والتي تجلّت في تقديسها لبعض المظاهر الكونية, ثم انتشار قداسة الأصنام «البُد», ومظاهر تقديس الأفعى, والبقرة, والشمس, ونهر الكنج, وطقوس إذلال الجسد, والتقشف, وتعدد المذاهب وتفرعها, وعقيدة التناسخ, إلى غير ذلك من طقوس ومظاهر التعبد, أما فيما يخص الجانب التقويمي لهذه العقائد؛ فقد انطوت أحكامهم على إحالة دائمة إلى مرجعيتهم الدينية, وهم الذين نظروا إلى الإسلام كخاتم للنبوة والرسالة, والوحي, ومتممها, فإن كان هناك من مركزية ثقافية عندهم فقد اقتصرت على «المركزية الدينية»، علماً أن دينهم منفتح على البشرية جمعاء، وليس ديناً مغلقاً أو ديناً للعرب حصرياً.

البحث عن الديانة البراهمية / الهندوسية:

التبس لديهم الأمر بشأن «براهما» بين أن يكون الملك المؤسس لوحدة الهند, ولحكمتها, ولدينها, وبين كونه رسولاً, وصاحب رسالة سماوية؛ لكنهم اتفقوا على إعلاء منزلته إلى مرتبة المؤسس للديانة الهندية ولحكمتها وملكها, وأغفلوا الجانب الإلهي فيه. ولعل مرد ذلك أنهم عرفوا أن طبقة البراهمة هي من الطبقات التي تختص وحدها بدور الكهانة, وكأنها استمرار لدور حامل الرسالة الذي قام به (براهما), وبالتالي فهي تنتسب إليه كمؤسس أول للديانة, والمنظم لقواعدها, وليس باعتباره -كما تذهب الديانة البراهمية- إله

الخلق وسيد الآلـه والمسيطر على العالم كله, والمحيط بجميع الكائنات, إلى جانب الإلهين العظيمين الآخرين: الإلهه شبو أوشيفو shivo المخرب المدمّر الموكول له قبض أرواح الناس وتخليصها من أبدانها, ووشنو Vishnu الحافظ, إله الحب الذي أحيا الموتى، وأبرأ الأكمة والأبرص، ثم صعد إلى السماء؛ ليعود إلى الناس من جديد قبل النشور ليهديهم إلى الحق. وإلى جانب هؤلاء الآلهة العظام هناك الآلاف -إن لم يكن ملايين الآلهة كما يذهب البعض- بعضهم أقرب إلى الملائكة، ومنهم ما هو في صورة الطير والحيوان والهوام, تجمعهم كلهم شبكة واحدة لتناسخ الأرواح(1).

وقد اكتفوا بالتأكيد على أن مؤسس الديانة الهندوسية هو «برهمن الأكبر والملك», فهو «الإمام المقدم فيهم الذي ظهرت في أيامه الحكمة»(2) غير أنهم أضافوا إلى ذلك احتمال أن يكون رسولاً(3) وأدركوا تعدّد الآلهة عند الهنود وتعدد مذاهبهم, واقتربوا من وعي أن للهندوسية ثلاثة آلهه عظمى، فاعتقد الحميري أنهم «اثنتان وأربعون ملة, فمنهم من يثبت الخالق وينفي الرسل, ومنهم من ينفي الكل، ومنهم من يعبد النار ويحرق نفسه, ومنهم من يعبد الشمس ويسجد لها, ويعتقد أنها الخالقة المدبرة لهذا العالم, ومنهم من يعبد الشجر, ومنهم من يعبد الثعابين»(4). بينما أشار المسعودي إلى أنهم بدأوا بسبع فرق, ثم «اختلف أهل الهند ممن سلف وخلف في آراء هؤلاء السبع, ثم تفرعوا بعد ذلك مذاهب... والذي وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة»(5) ، وقسّم الشهرستاني (ت 548 هـ - 1153 م) مذاهب أهل الهند. ووضع البراهمة ما بين مذاهبهم العديدة, وهم المنكرون للنبوات أصلاً, ومنهم من يميل إلى الدهر, ومنهم من يميلِ إلى الثنوية، ويقول بملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ, وأكثرهم على مذهب الصابئة ومناهجها, فمنْ قائل بالروحانيات, ومن قائل بالهياكل, ومن قائل بالأصنام(6) . وفصّل (مطهّر المقدسي) الأمر, فالهند تسعمائة ملة مختلفة», عُرف منها تسعة وتسعون ضرباً, إلا أنه أرجعهم بالنهاية إلى «اسمين: البراهمة والسمنية» والسمنية اسم أطلقه العرب على «البوذية», التي هي «معطلة», أي لا تؤمن بمسألة الخلق والخالق, أما البراهمة «فهم ثلاثة أصناف»(7). ولعل المقدسي يشير هنا بطريقة غامضة إلى المذاهب البراهمية المتمحورة حول الآلهة الثلاث: براهما, وشيفو, ووشنو, غير أنه يذهب في التفسير باتجاه آخر, فهذه الأصناف الثلاثة «منهم من يقول بالتوحيد, والثواب والعقاب, ويبطلون الرسالة» وصنف آخر يقول «بالثواب والعقاب على التناسخ, ويبطلون التوحيد والرسالة»(8). وزعمت الموحدية من البراهمة أن الله ـ عزّ وجلّ ـ بعث إليهم ملكاً من الملائكة بالرسالة في صورة بشر اسمه «ناشد», له أربع أيد... وله اثنا عشر رأساً... «قالوا: أمرنا بتعظيم النار... ونهى عن القتل وشرب الخمر, وأباح لنا الزنا, وأمرنا بعبادة البقر, وأن نتخذ صنماً على مثاله»(9).

فلقد أبرز الباحثون العرب وجود التوحيد في البرهمية, ثم ما لبثت هذه النزعة التوحيدية أن شابها التعدّد, والتجسيد, وذلك عن طريق تعظيمهم للأصنام, والنار, والبقر, وتصورهم هذا عن المزج بين (الوحدانية) والتعددية لا يجانب واقع الديانة البراهمية, وإن كان ينقصه معرفة التسميات الملائمة, وإدراك النظام الشامل للعبادات البراهمية وترابطها,

وعقائدها,وأسماء آلهتها الكبرى, والتراتبية الهرمية للآلهة, ووظائف كل منها في مجمعها, وهو ما جعلهم -بعد إبراز نزعة (التوحيد)- يستطردون في تعقب اعتقاداتهم بالآلهة المجسمة من أصنام وغيرها, والإفاضة في وصف الطقوس المرافقة للعبادة.

وقد حيّر مؤلفينا كيف أمكن للهندوس التوفيق بين الوحدانية والتجسيم, وهو أحد اشتغالات «علم الكلام» لديهم, فليس من المستغرب أن يحاجج المروزي أحد الهندوس بذلك؛ إذ سأل أحد البراهميين, «إذا كنتم تعلمون أنه (أي الله) ليس كمثله شيء, فلم تعبدون الأصنام من دونه؟»، فأجابه البرهمي: «إنه قبلتنا، كما أن قبلتكم حجارة مبنية (يقصد الكعبة)، فأنتم تعبدونها»(10).

ومن مظاهر قولهم في وحدانية الله ما أشار إليه الشهرستاني إلى أن بعض فرقها قالت: «قد دلّ العقل على أن الله تعالى حكيم, والحكيم لا يتعبد الخالق إلاّ بما دلّ عليه عقله, وقد دلّت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً.... فننظر في آيات خلقه بعقولنا ونشكر..», وقالت أخرى:«قد دل العقل على أن للعالم صانعاً حكيماً, والحكيم لا يتعبد الخلق بما يقبّح في عقولهم»(11) . لذا فهم يستقبحون تخصيص دور للعبادات والطواف حولها, وتقبيل الأحجار, وذبح الحيوان تقرباً, كل هذه يعتبرونها «مخالفة لقضايا العقل».

وعلى الرغم مما قرّره أغلب مصنفينا من أن البراهمية -كما عبر الشهرستاني- «إنما ينتسبون إلى رجل منهم يقال له براهم, وقد مهد لهم نفي النبوات أصلاً، وقرّر استحالة ذلك في العقول»، فإن بعضهم الآخر لم ينف عن البراهمة النبوة والرسالة, فقد أشار المسعودي مرة إلى احتمال أن يكون البراهما رسولاً, فإن المروزي وابن طاهر المقدسي أكدا أن بعض فرقهم جمع بين القول بالخالق الواحد, والنبوة والرسالة؛ إذ يقول المقدسي: «فممن أثبت الخالق البراهمة, زعموا أن رسول الله إليهم ملك من الملائكة، يقال له: سديو، أتاهم في صورة البشر برسالة من غير كتاب, له أربعة أيد, وله اثنا عشر رأساً... أمرهم أن يتخذوا صنماً يعبدونه, ويطوفون حوله كل يوم ثلاث مرات... وأن يعبدوا البقر وألا يجازوا (يجتازوا) نهر الكنك»(12).... فجمعت هذه الفرقة بين الوحدانية والخلق, والإيمان بالرسل, وعبادة الأصنام تقرباً إلى الله. وأشاروا أيضاً إلى فرقة أخرى اسمها «المهادوية», هؤلاء زعموا«أن رسول الله إليهم ملك من الملائكة يقال له مهادويه, أتاهم في صورة بشر، وهو راكب على ثور على رأسه إكليل مكلّل بعظام الموتى... أمرهم بعبادة الله, وأن يتخذوا على مثاله صنماً يعبدونه, وهو سبيلهم إلى الخالق»(13).

هنا تصبح عبادة الصنم وساطة للوصول إلى الله وتقرباً منه, وليس عبادة له بحد ذاته, وهذه المسألة من الأهمية بحيث خصّص لها المسعودي مقطعاً مهماً تفحص فيه دوافعها ومعانيها لدى البراهمية, مُخضعاً تصوره إلى نمو الروح الإيماني في التاريخ. فهو يشير إلى أن كثيراً من أهل الهند والصين يعتقدون أن الله - عزّ وجل - جسم, وأن الملائكة أجسام, وأن الله وملائكته احتجبوا بالسماء، فدعاهم ذلك إلى أن يتخذوا تماثيل وأصناماً

على صورة الباري, وعلى صورة الملائكة, يعبدونها ويقربون لها القرابين والنذور؛ «لشبهها عندهم بالباري, وقربها منه», فأقاموا على ذلك برهة من الزمان, حتى نبههم بعض حكمائهم إلى أن الأفلاك والكواكب أقرب بينها وبين الله, وأن كل ما يحدث في العالم إنما على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله, فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم, ومكثوا على ذلك دهراً, ثم لما رأوا غياب الكواكب في النهار وبعض أوقات الليل أمرهم بعض حكمائهم أن يجعلوا أصناماً, يُقرَّب لها نوعٌ من القربان, معتقدين أنهم إذا عظموها تحركت لهم الأجسام العلوية بكل ما يريدون, ولما طال عليهم العهد«عبدوا الأصنام على أنها تقربهم إلى الله,وألغوا عبادة الكواكب»(14).

وعلى هذا فقد أدرك المؤلفون العرب تعددية المذاهب والآلهة وأشكال الطقوس المتبعة في الديانة الهندوسية البراهمية, من تلك التي تُعلي شأن التوحيد الإلهي, إلى تلك التي يتجسد لديها الإله في الصنم, أو في أفعى, أو بقرة, أو نهر الكنج, وعرفوا ما لعقيدة «التناسخ» من أهمية في السلوك الحياتي, وفي التقوى العقيدية, وفي عقيدة الخلاص, وفي الطقوس المتعددة, ولاسيما طقس إماتة النفس من فوق جبل مقدس, أو في نهر الغنج, أو الموت حرقاً مع نثر رماد الجسد في النهر, أو في الأودية.

لم يوفقوا في تسمياتهم المختلفة للمذاهب, ولا في تبويب عقائدهم, إلاّ أنهم استطاعوا التعبير عن التربية الروحانية للديانة الهندوسية, ومنابعها, وخلاصاتها, وأساليبها الطقسية التعبيرية, فبالإضافة إلى ما ذكرناه من مذاهب, فقد أشار بعضهم إلى العديد من المذاهب الأخرى, وغفلوا أحياناً عن حقيقة أن هذه المذاهب, والطرق التعبدية -على كثرتها الكاثرة- تضمنتها البراهمية ذاتها, واستوعبتها داخلها. وهذه القاعدة لا تنطبق على جميع المفكرين العرب, فالدمشقي ضمّ عبدة النار إلى البراهمية, دون أن يفرق بينهما، فهو يقول: «ومن طرائقهم أيضاً البراهمة عباد النار»، وجعلوا «قبلة السجود النار يتوجهون إليها بالعبادة والسجود»(15) ، كما أنهم انساقوا في مقاربتهم للعقائد البرهمية إلى الإحالة إلى مرجعياتهم الدينية, وإلى ما يشبهها من ديانات خبروها في تجربتهم, هذه الإحالة نجدها أيضاً في ترتيبهم وتبويبهم لمذاهب الهند بين الروحانيات والماديات, بين أصحاب الدهر وأصحاب التوحيد, بين أصحاب التجسيد والتمثيل ,وفي مقدمتهم أصحاب الأصنام, وأصحاب التوحيد من منكري النبوات, وانتهى المقدسي والشهرستاني إلى التركيز على فرق خمس: أصحاب الروحانيات (القائلين بالتوحيد), وأصحاب الهياكل (أصحاب التجسد)، والحكماء (الموحدة اعتماداً على العقل)، وعبدة الأصنام(16). وفرّع عن هذا التقسيم العديد من المذاهب, فهناك -بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً- جماعة يثبتون الخالق وينفون الرسل, وهم أصحاب فكر, يعطلون حواسهم بطول فكرهم, ولا يأكلون الألبان واللحم وما مسّته النار, ومنهم «المصفدة» الذي يصفدون أجسادهم بالحديد؛ لئلا تنشق بطونهم من غلبة الفكرة وقوة العلوم(17)،ومنهم الجلهكية, يعبدون الماء ويزعمون أن معه ملكاً, وأنه أصل كل نشوء ونماء وحياة وعمارة وطهارة, ومنهم من يعبد النار, وهي أعظم العناصر، وهؤلاء لا يحرقون موتاهم، ومنهم «المهاكلية» لهم صنم يقال له (مها كال)

يحجون إليه، ومنهم قوم يعبدون الشمس, واتخذوا لها صنماً يجره أربعة أفراس. وبيد الصنم جوهر, ويزعمون أن الشمس ملك من الملائكة، ويتقربون إليها بالسجود والطواف(18).

وفي سياق عرضهم للديانة الهندوسية أفردوا مساحة مهمة لعبادة الأصنام (البُدد)، والتي يرتبط كل صنم وشكله ومعبده بالمذهب المتفرع عن البراهمية كما رأينا, ومعه الكهنة ورجال الدين المشرفون على العقيدة والطقس؛ إذ لاحظ ابن سعيد المغربي «أن على جانبي نهر الكنك (الغانج) «قلاع البراهمة التي لا ترى, وهم عباد الهند الذين ينسبون إلى البرهمن, وهو أول حكمائهم وسلاطينهم, الذي اجتمعت لهم ممالك الهند وأديانها... والأبداد عندهم»(19) . ولفتوا النظر إلى العديد من الأصنام الكبرى (البُدد) في الهند, وأماكن عبادتها والطقوس الملازمة لهذه العبادة, فهناك صنم (الملتان) داخل بيت عبادة «كان يُلقي الذهب فيه من كوة في وسطه من أعلاه, وكان المرتب لخدمة هذا الصنم سبعة آلاف سادن»(20). كما أشاروا إلى وجود (بُد) في بلاد كرور (وهي مدينة مالوه), مقصود من الهند «ياتون (إليه) من مسيرة سنة بأنواع من التعبدات التي يرونها, فمنهم من يمشي على ركبه زحفاً أبداً من مكانه حتى يصل»(21). وفي الديبل -كما يقول البلاذري- «بُد عظيم» عليه دقل طويل وعلى الدقل راية حمراء, والبُدد على شكل منارة, ويختم قوله: «وكل شيء عظموه من طريق العبادة فهو عندهم بُد, والصنم بُد أيضاً»(22) . وأفاضوا في وصف (بد) مدينة صومنات، فقد كان «أهل الهند يعظمون هذا الصنم, ويحجون إليه في كل ليلة كسوف, ويزعمون أن الأرواح إذا فارقت الأجسام اجتمعت إليه فينشئها مع من ينشئ على مذهب التناسخ»(23) , وتحدث المروزي أنه يوجد في إحدى مدن الهند «سبعمائة بيت للأصنام, ولها غلات»(24).

طقوس ومقدسات أخرى:

لا حظ مؤلفونا أيضاً تقديس الهندوس للعديد من الظواهر الطبيعية والحيوانية والنباتية, التي أسبغوا عليها مظاهر التبجيل, وأحاطوها بطقوس العبادة, وفي مقدمة تلك الظواهر تقديسهم لنهر الكنك (الغانج), الذي ارتبطت به الكثير من الطقوس المعبرة, وكما قال ابن سعيد المغربي «ونهر الكنك المعظم عند الهنود يمرّ في بلادهم, وهم أيضاً يعظمونه, ويغرقون فيه»، ويزعمون «أن هذا النهر من الجنة, وأنه متى جعلت فيه القاذورات أظلم جوّه وامتلأت أرجاؤه من الرياح والأمطار والصواعق»(25).

ولاحظوا باستفظاع وتعجّب اقتران هذا التقديس للغانج بطقوس قاسية ميتة؛ إذ روى ابن بطوطة أن الكثير من الهنود «يغرقوا أنفسهم في نهر الكنج, وهو الذي يحجون إليه, ويحرقون أنفسهم, وفيه يُرمى برماد هؤلاء المحرّقين, إذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره: لا تظنوا أني أغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا, أو لقلة مال, إنما قصدي التقرب إلى كساي, وكساي اسم الله - عزَّ وجلّ - بلسانهم, ثم يغرق نفسه, فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده في النهر المذكور»(26). وهناك طقوس أخرى أكثر

دموية, فهناك إلى جانب النهر (شجر القنا) وهو في غاية الارتفاع, يرتقي عليها الرجال يقطعون رؤوسهم على طرف القناة, وآخر يلقي نفسه من شاهق على تلك السيوف والخناجر فيقطع(27) وربما أتاه الناسك من المكان البعيد فيغرق نفسه فيه, يرى أن هذا الفعل ينجيه, ويبلغ إفراطهم في تعظيمه لدرجة «أن الرجل منهم إذا أراد الفوز أحرق نفسه, وألقى رماده فيه, ومنهم من يلقي نفسه في النهر فيغرق»(28).

وعلى الرغم من اعتيادهم رؤية الصوفيين في ديارهم, وطرائقهم التقشفية, وإذلالهم الجسد طريقاً للخلاص الروحي, إلا أن ما رأوه في الهند من طقوس وطرائق لإذلال الجسد يصل إلى القتل, والإجهاز على الجسد حرقاً, أو غرقاً, كان مدار دهشة لهم واستفظاع, فلم يستطيعوا فهم طقوس «قتل النفس» التي مارسها الهندوس كطريق للخلاص, وكأسلوب لفك إسار الروح من قيود الجسد. وشرح المسعودي هذا الطقس قائلاً: «والهند تعذب أنفسها بأنواع من العذاب من دون الأمم, وقد تيقنت أن ما ينالها من النعيم في المستقبل مؤجلاً لا يكون بغير ما أسلفته من تعذيب أنفسها في هذه الدار معجلاً, ومنهم من يصير إلى باب الملك يستأذن في إحراقه نفسه, فيدور في الأسواق, وقد أُججت له النار العظيمة, ثم يسير بالأسواق وقدامه الطبول والصنوج, وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير, وعلى رأسه إكليل من الريحان, وقد قشر جلده من رأسه وعليها الجمر... فيسير وهامته تحترق, وهو يمضغ ورق التنبول, وحب الفوفل»(29).

وروى بزرك عن محمد بن بابشار أنه رأى في الهند رجالاً يقعدون على ضفة النهر بانتظار أن يجرفهم ماؤه, وعن ورجالا يأتي «الواحد بعد الواحد إلى الخور ليغرق نفسه, فيعطى أجرة لمن يغرقه... أو لمن يضع يده في قفاه ويغطه في الماء حتى يتلف»(30). وسرد ابن طاهر المقدسي قائمة بالطرق التي يتبعها الهندوس لقتل أنفسهم: «منهم من يحفر أخدوًدا ويجمع فيه الألوان والأدهان والطيب, ويوقد عليه, ثم يجيء وحوله المعازف بالصنوج والطبول, ويقولون: طوبى لهذه النفس ليكن هذا القربان مقبولاً, ثم يسجد.. ويرمي نفسه في النار فيحترق... ومنهم من يُجمع له أخثاء البقر فيقف في وسطه.. وتُشعل فيه النار, ولم يزل واقفاً حتى تأتي النار عليه.. ومنهم من يوضع على رأسه إكليل من المُقل, ويوقد حتى يسيل دماغه.. ومنهم من يحمي الصخور, فلا يزال يضع على جوفه صخرة بعد صخرة حتى تخرج أمعاؤه, ومنهم من يحفر له حفرة بجنب النهر ويوقد فيها ولا يزال يثب في النار من الماء, ومن النار إلى الماء إلى أن تزهق نفسه.. ومنهم قوم يرهقون أنفسهم بالجوع.. ومنهم من يهيم في الأرض حتى يموت»(31). أما المقاصد النهائية لهذه الطقوس المروعة فأرجعها المقدسي إلى أن الهنود «يزعمون أن في ذلك نجاة لها وخلاصاً إلى حياة الأبد في الجنة»(32). أما المقصد الآخر الذي يقف وراء تلك الرغبة في إنهاء حياة الجسد فقد ردّها السيرافي إلى عقيدة التناسخ الهندوسية؛ إذ «إن سائر الملوك يقولون بالتناسخ ويدينون به»، وأعاد هذا الاعتقاد الأخير إلى حادث بدئي شبه أسطوري, يتعلق بأحد ملوك الهند العظام الذي أصابه الجدري, «فاستفزع منظره بالمرآة, فقال لابن أخيه: ليس مثلي أقام في هذا الجسم, عليّ تغييره, فالجسم إنما هو ظرف للروح

متى زال عنه عاد في غيره, إني مزيل بين جسمي وروحي إلى أن انحدر في جسم غيره, فحزّ رأسه ثم أحرق»(33). ومن الأشياء التي أثارت استغراب العرب تقديس الهندوس للبقرة, فقد لاحظ ابن بطوطة باستغراب أنهم «يعظمون البقر, ويشربون أبوالها للبركة, وللاستشفاء إذا مرضوا... ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأوراثها»(34). وحرموا قتلها لعلو مكانتها القدسية, أو ذبحها, وحكموا على من يقوم بهذا الفعل.. بالقتل, ونظروا إلى المسلمين- لأنهم يذبحونها, ويأكلون لحمها- على أنهم أنجاس, وكما روى المروزي: «ولا يقربون من المسلمين, ويقولون: إنكم أدناس؛ لأنكم تأكلون لحم البقر»(35).

ويبلغ العجب ذروته عندما يلاحظ مؤلفونا اقتران الطقس المقدس التعبدي بالعهر؛ ليصبح الأخير مقدساً, وهي مفارقة في المعاني لم يألفها المفكر العربي, ولم يستسغها, فسجل ابن رسته وجود مائة جارية حول صنم ملتان, وظيفتهن الطقسية الرقص أمام الصنم (البد), واستعطافه,بحسب قولهن: «نحن نرقصه, ونترضاه»(36) . ويتطور الأمر في بعض المعابد إلى أن توهب الفتاة أمرها للمعبد في ممارستها للعهر حيث يتحول الأخير إلى طقس تعبدي, فذهب السيرافي إلى أن«بالهند قحاب يُعرفون بقحاب البد», فعندهم «أن المرأة إذا نذرت نذراً وولد لها جارية جميلة أتت بها البُد, وهو الصنم الذي يعبدونه, فجعلتها له, ثم اتخذت لها في السوق بيتاً وعلقت عليه ستراً, وأقعدتها على كرسي ليجتاز بها أهل الهند, وغيرهم من سائر الملل.. فتمكّن من نفسها بأجرة معلومة, وكلما اجتمع لها شيء من ذلك دفعته إلى سدنة البد»(37).

وقد أثار انتباه البيروني هذا الطقس, ونعته بـ(الآفة), فبعد أن نفى ما يشاع من أن الهند تبيح الزنا, ينتقل إلى تأكيد أن الهند لا يشدّدن في العقوبة عليه وحسب, وحصر (الزنا) المباح في بيوت الأصنام, محملاً الملوك وحدهم مسؤولية إباحته, قائلاً: «والآفة فيه من جهة ملوكهم, فإن اللواتي تكنَّ في بيوت الأصنام هن للغناء والرقص واللعب, لا يرضى منهن برهمن ولا سادن بغير ذلك, ولكن ملوكهم جعلوهن زينة للبلاد وفرحاً وتوسعه على العباد, وغرضهم فيهن بيت المال»(38). ولفت المروزي الانتباه إلى أن هناك في إحدى المدن الهندية سبعمائة بيت للأصنام لها غلال خاصة, «وقد رتّب لها بيوت قحاب, في كل بيت عشر أو اثنتا عشرة منهن»(39) . كما أن في أراضي لاهور مدينة يقال لها (راميان)فيهما أصنام قيام,ومضطجعة , وصنم من الذهب, «وهو صنمهم الأكبر, وله ثلاثون قحبة تجري عليهن الجراية من غلاته, والناس يتمتعون بهن مجاناً, ويطلبن به الثواب, ولا يبرحن من موضعه في الليل والنهار»(40)، ولقد أفرد البيروني بحثاً شاملاً للديانة الهندية إلاَّ أن بحثه هذا يحتاج إلى وقفة أخرى.

****

الحواشي:

1- راجع في هذا أحمد محمد الساداتي, تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم ج1, مصدر سابق, ص23, وغوساف لوبون, حضارة الهند, ص605-600

ومحمد حافظ سيد, الحياة في رأي الآراميين القدماء مجلة ثقافة الهند, 1950 سبتمبر, ص125–123.

2- المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط4، مصر 1964, ص76.

3- المسعودي المصدر نفسه, ص79.

4- الحميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خير الأقطار، حققه إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، بيروت 1980, ص597.

5- المسعودي مروج الذهب, ج1, ص79.

6- الإمام أبو الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني, الملل والنحل, ج2, اعتنى به أبو عبد الله السعيد المندوه, مؤسسة الكتب الثقافية بيروت, 1994, ص218.

7- مطهر بن طاهر المقدسي (ومنسوب إلى أبي زيد بن أحمد بن سهل البلخي), كتاب البدء والتاريخ, ج4, باريس, 1907ص9.

8- 10-المصدر نفسه, ص9.

9- 13-المصدر نفسه, ص12.

10- المروزي، الطبيب شرف الزمان طاهر، أبواب في الصين والترك والهند. wheffer طبع في بريطانيا من وأولاده في كمبرج, لندن 1942, ص39.

11- الشهرستاني, ج2, ص220-219.

12- المروزي, ص28 وابن طاهر المقدسي, ص13-12.

13- المصدر نفسه, ص28 وابن طاهر المقدسي, ص13.

14- المسعودي مروج الذهب, ج1, ص14.

15- الدمشقي، محمد بن أبي طالب الأنصاري (شيخ الربوة): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطرسبورغ، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية 1281هـ-1865م, ص172.

16- ابن طاهر المقدسي, ج4, ص14.

17- المصدر نفسه, ص15والمروزي ص30.

18- 16-ابن طاهر المقدسي، المصدر السايق، ص15, المروزي ص33-31.

19- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى: كتاب الجغرافية، تحقيق 1970إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت , ص134.

20- الدمشقي, ص174.

21- المصدر نفسه, ص175.

22- البلاذري, الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر, فتوح البلدان, حققه عبد الله أنيس الطباع, وعمر أنيس الطباع, دار النشر للجامعيين, بيروت 1957, ص613.

23- الدمشقي, ص45.

24- المروزي, ص40.

25- ابن سعيد المغربي, ص164, النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج1، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، دون تاريخ , ص272.

26- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي: رحلة ابن بطوطة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، دار الشرق العربي، بيروت، دون تاريخ, ص324.

27- ابن سعيد المغربي, ص134 والمسعودي, مروج الذهب ج1, ص208.

28- النويري، السفر الأول, ص272.

29- المسعودي, مروج الذهب, ج1, ص209 والسيرافي, ص79/80.

30- بزرك, ص120.

31- ابن طاهر المقدسي, ص17 والمروزي, ص33.

32- المصدر نفسه, ص16.

33- 72-السيرافي، ص71، والمسعودي, مروج الذهب, ج1, ص82 والدمشقي, ص174.

34- ابن بطوطة, ص341.

35- المروزي, ص39.

36- ابن رستة، أحمد بن عمر: الجزء السابع من «الأعلاق النفيسة»، تحقيق: دي خويه، مطبعة بريل 1892م, ص137.

37- 85-السيرافي, ص84.

38- البيروني، أبو ريحان محمد بن أحمد: كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد-الدكن، الهند 1377, ص472-471-1958.

39- المروزي, ص40.

40- . المصدر نفسه، ص39